سيرة الشاعر الإسلامي محمد إقبال

عبد الله مبشر الطرازي

أسرته وموطنه

يرجع نسب أسرة إقبال إلى براهمة كشمير، أسلم أحد أجداده قبل مائتي سنة في عهد الدولة المغولية في الهند، وهاجر محمد رفيق، جد إقبال، من قرية لوهر في كشمير إلى مدينة سيالكوت من ولاية بنجاب، وسعى في طلب الرزق يعينه ابنه نور محمد، وهو والد إقبال[١].

كان والداه صالحين تقيين، فأبوه نور محمد كان رجلا صالحا وكادحا في كسب رزقه يعمل لدينه ودنياه، وقد عاش زهاء مائة سنة، وكف بصره في سن الثمانين حتى توفي سنة ١٩٣٠م، وكذلك أمه كانت سيدة تقية ورعة، توفيت سنة ١٩١٤م وسنها ثمان وسبعون سنة[٢]، وكانا يدعوان في كل وقت لابنهما إقبال بالتوفيق لخدمة الإسلام.

مولده ونشأته

في هذا البيت المتواضع ولد وليد سمّته أمه "محمد إقبال" ويروى أن والده رأى قبل مولده حمامة بيضاء ناصعة تطير فتقع في حجره وتسكن إليه، وعبرت الرؤيا أنه سيرزق ابنا عظيم الجد والإقبال، وكانت ولادته في سنة ١٨٧٧م[٣] الموافق ٢٤ من ذي الحجة سنة ١٢٨٩هـ، ولم يأبه أحد بمولد هذا الطفل، إلا كما تأبه أسرة فقيرة لمولد ابن فيها، ولكن الله تعالى كان يعلم أنه قد ولد في هذا البيت الفقير من

١- العلامة أبو الحسن الندوي، **روائع إقبال**، طبعة الهند، ط ٤، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٢٩، وكذلك عبد الوهاب عزام، **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، بيروت، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ص ٢٥.

٢- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٣٠.

٣- **روائع إقبال**، ص ٢٩ ولكن الدكتور عزام ذكر تاريخ ولادته سنة ١٨٧٣م (**محمد إقبال**، ص ٣٠). بينما ذكره محمد حسن أعظمي سنة ١٨٧٦م (**حقيقة باكستان**، ص ٤٣).

مدينة سيالكوت رجل يعلو فكره وقلبه على حدود الأوطان والأزمان[٤].

تعليمه وثقافته الإسلامية

بدأ إقبال التعليم في طفولته على أبيه، ثم أدخل مدرسة ليتعلم القرآن الكريم فحفظ كثيرًا منه، وكان في كبره يعلم القرآن المجيد للطلاب، وإن كثرة اقتباسه من القرآن الكريم في شعره تدل على أن كتاب الله كان دائما على قلبه ولسانه[٥] ثم أدخل الصبي مدرسة البعثة الأسكوتية[٦] ويقال: إن أباه أدخله هذه المدرسة ليكون في رعاية صديقه العالم الجليل مير حسن الذي كان أستاذا وأديبا متضلعا في الأدب الفارسي وعارفا باللغة العربية، وقد امتاز إقبال بذكائه وجهده ففاق زملاءه ونال جوائز كثيرة، ورأى الأستاذ مير حسن من ذكائه بل من قوله وفعله ما زاده إعجابا به، فعني بتلقينه الدين والعربية والفارسية، وغرس فيه حب الآداب والثقافة الإسلامية، حتى أتم إقبال الدراسة الثانوية في الكلية الأسكوتية سنة ١٨٩٥م وعمره نحو اثنتين وعشرين سنة، ولم ينس إقبال فضل أستاذه إلى آخر حياته[٧].

انتقل إقبال بعد ذلك إلى مدينة لاهور، وهي حاضرة ولاية بنجاب وإحدى المدن الكبرى التي بقيت في مقدمة مدن الهند حضارة وعلما وفنا، وكانت حين قصد إليها إقبال مدينة العلم والأدب تعمل مجامعها في نشر الأدب الأردي وإحلاله محل الأدب الفارسي، وتألفت فيها مجامع أدبية تدعو إلى محافل ينشد فيها الشعراء عيون أشعارهم، ويسمى هذا "مشاعرة" والمشاعرة عادة أدبية في باكستان والهند حتى اليوم[٨].

ودخل إقبال كلية لاهور الحكومية، وكان موضع الإعجاب في ذكائه وعلمه وأدبه، واستمر في الدراسة حتى حصل على درجة البكالوريوس، وبرز في العربية والإنجليزية ونال جوائز التفوق في سنة ١٨٩٧م، ثم تابع الدراسة إلى الماجستير ونالها أيضًا[٩]، وكان المستشرق المعروف توماس آرنولد[١٠]

٤- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٣١.

٥- **روائع إقبال**، ص ٣٠، وكذلك انظر: أبو محمد مصلح، **قرآن اور إقبال**، (بالأردية)، طبعة لاهور، باكستان، ١٣٥٩هـ، ص ٢١ وما بعدها.

٦- Scottish Mission School

٧- **روائع إقبال**، ص ٣٠، **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٣٢.

٨- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٣٩.

٩- **روائع إقبال**، ص ٣١.

١٠- كان السير توماس آرنولد أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن، ثم أستاذ الفلسفة في جامعة علي كره بالهند، ثم في كلية لاهور الحكومية.

صاحب كتاب **الدعوة إلى الإسلام** أستاذه في الفلسفة الإسلامية، وكان يقدر مواهب إقبال[١١].

اشتغاله بالتدريس بعد التخريج

فرغ إقبال من تحصيل العلم في الكلية، فاختير لتدريس التاريخ والفلسفة في الكلية الشرقية[١٢] في لاهور، ثم عيّن لتدريس الفلسفة واللغة الإنجليزية بالكلية الحكومية التي تخرج فيها، وقد نال إعجاب تلاميذه وزملائه وثقة وزارة المعارف بسعة علمه وحسن خلقه وسداد رأيه، واتجهت الأنظار إليه، وذاع ذكره حتى صار من أساتذة لاهور النابهين[١٣].

سفره إلى بلاد أوربا

عزم إقبال على الرحيل إلى أوربا للتزود من العلم عملا بمشورة أستاذه السير توماس آرنولد وسنه يومئذ اثنان وثلاثون سنة في عام ١٩٠٥م، فقد ركب إقبال سفينة في بومباي قاصدًا إنجلترا، والتحق بجامعة كمبرج لدراسة الفلسفة، وتتلمذ للأستاذ الدكتور ميكتاكرت، ونال من هذه الجامعة درجة في فلسفة الأخلاق، ثم سافر إقبال إلى ألمانيا فتعلم الألمانية في زمن قليل، والتحق بجامعة ميونيخ وكتب رسالته للدكتوراة في الفلسفة بعنوان: "تطور ما وراء الطبيعة في فارس"[١٤]، وهو أول كتاب في الفلسفة عرف الناس به مقدرة إقبال على النظر والبحث وسعة الاطلاع في الفلسفة، وأهدى الكتاب إلى أستاذه توماس آرنولد ونشره في لندن[١٥].

ثم عاد إقبال إلى لندن، فدرس القانون وحاز إجازة المحاماة، والتحق كذلك بمدرسة العلوم السياسية زمنا، وكان المستشرق توماس آرنولد حينئذ أستاذ العربية في جامعة لندن، واضطر إلى الانقطاع عن ثلاثة أشهر، فاختار إقبال ليخلفه في عمله بالتدريس، ولبث إقبال في أوربا زهاء ثلاث سنوات[١٦]، ولم يأل إقبال جهدا وهو في أوربا في لقاء العلماء وتداول الرأي معهم في القضايا العلمية والفكرية، وكان كثير التحدث عن الإسلام وثقافته وحضارته، وألقى محاضرات في الإسلام نشرتها الصحف الكبيرة،

١١- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٣٢.

١٢- Oriental College

١٣- **روائع إقبال**، ص ٣٠، **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٤٤.

١٤- Development of Metaphysics in Persia

١٥- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٤٩، **روائع إقبال**، ص ٣١.

١٦- **روائع إقبال**، ص ٣١.

وقد دلت آراؤه وشعره بعد ذلك على أنه لم يعجب بحضارة أوربا، بل رآها حضارة زائفة[١٧].

عودته إلى أرض الوطن واشتغاله بالمحاماة

عاد إقبال إلى الوطن في سنة ١٩٠٨م، ومن دواعي العجب أن كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة وهو لم يتجاوز اثنين وثلاثين عاما من عمره، وأقام أصدقاؤه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم كبير للشاعر الفيلسوف والخبير الاقتصادي والسياسي الحاذق في عدة لغات[١٨].

وبعد أن نال إقبال إجازة المحاماة في لندن قرر أن يعمل في لاهور محاميا لخدمة الحق والعدالة، وبلغ أعلى الدرجات في المحاماة بفضل ذكائه وعلمه وبيانه وخلقه، وأنه كان لا يقبل قضية حتى يعلم أن وكيله محق في القضية التي يوكله فيها، وأنه يستطيع أن يأخذ له حقه، وقد دام على المحاماة حتى سنة ١٩٣٤م قبل وفاته بأربع سنوات إذ اضطره المرض إلى تركها[١٩].

لكن لم يكن هواه في المحاماة، فكان يقضي أكثر أوقاته وجل همه في تأليف الكتب وقرض الشعر، وكان يحضر حفلات جمعية "حماية الإسلام" السنوية وينشد فيها قصائده، ومنها "العتاب والشكوى" التي اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين لما حل بهم، وذكر أعمال المسلمين الخالدة في سبيل نشر الإسلام وسبيل الجهاد والإصلاح، ثم نظم قصيدة وضح فيها تقصير المسلمين وإهمالهم للدين وعدم إتقانهم أمر الدنيا، تبريرا لما جوزوا به من الخزي والهوان، وسرعان ما تغنى بهذه القصيدة الأطفال والشبان وحفظها الرجال والنساء[٢٠].

اهتمامه بالتعليم والتربية

كان إقبال بعد عودته من أوربا يقوم أيضًا بتدريس الفلسفة والأدب العربي واللغة الإنجليزية في "كلية لاهور الحكومية" في لاهور لمدة سنة ونصف، ثم استقال منها واكتفى بالمحاماة، ولكنه لم يقطع صلته بالجامعة، فكان يعمل في مجالسها ولجانها، وقد لبث سنين عميدًا لكلية الدراسات الشرقية ورئيسا لقسم الدراسات الفلسفية، وكان ذا صلة دائمة بالكلية الإسلامية في لاهور، وكذلك كان كثير الاهتمام

١٧- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٥٠.

١٨- **روائع إقبال**، ص ٣٢.

١٩- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٥٥.

٢٠- **روائع إقبال**، ص ٣٢.

بالجامعة الملية في دهلي، كما عمل في مؤتمر المائدة المستديرة للنظر في إصلاح التعليم في الهند[٢١].

وكان إقبال دائم الاتصال بمعاهد العلم في لاهور وغيرها من المدن الهندية، وكانت الجامعات تدعوه إلى زيارتها وإلقاء المحاضرات فيها، فمنها ست محاضرات سميت **إصلاح الأفكار الدينية في الإسلام**[٢٢].

ومن محاضراته القيمة محاضرة ألقاها في الجامعة الإسلامية في دهلي موضوعها "السفر من لندن إلى قرطبة" فرأى السامعون كيف اجتمع عقل إقبال وقلبه وعلمه وأدبه على الإعجاب بآثار العرب في الأندلس والإشادة بها[٢٣]، واحتفل به المسؤولون في الجامعة الإسلامية، وتكلم بعضهم في الإشادة بأدبه، وكان ممن تكلم مولانا أسلم جيراجبوري فقال: "قرأت الشعر بالعربية والفارسية والأردية، ولا حرج على أن أقول إن إقبال أعظم شعراء المسلمين، إن كلامه ليفيض بالحقائق الإسلامية، ولقد هدى ناشئتنا سواء السبيل، إن إقبال حذق علوم الغرب، ثم أبلغ المسلمين الرسالة التي بصرتهم بحقيقة الإسلام وعظمته، وملأت قلوب الشباب الغافل بحب القرآن الكريم وحب الرسول صلى الله عليه وسلم" وقد منحت جامعة عليكرة وجامعة إله آباد لقب "دكتور" لإقبال تقديرا لمكانته واعترافا بفضله في خدمة العلم[٢٤].

مشاركته في السياسة

فلسفة إقبال في السياسة فلسفة أمل وعمل، وجهاد وإقدام، ودعوة وعزة، وكرامة وحرية، فهي عون للأمم المجاهدة لحريتها وكرامتها، تبعث فيها النور والنار.

وقد وجّه إقبال دعوته إلى البشرية عامة والمسلمين خاصة، وأخذ من التاريخ الإسلامي أمثلة لفلسفته وصورًا لشعره، فقد كان شعر إقبال ولا يزال أناشيد مسلمي الهند المجاهدين، أشعل في نفوسهم ثورة على سلطان الإنجليز، وقد شارك إقبال في سياسة بلاده بأقواله وأفعاله، ورأس مجامع سياسة، وكان عمادًا قويا لحزب الرابطة الإسلامية[٢٥].

٢١- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٥٥.

٢٢- Reconstruction of Religious Thought in Islam

٢٣- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٥٩.

٢٤- المرجع السابق، ص ٦٠.

٢٥- المرجع السابق، ص ٦٢.

وألحّ عليه أصدقاؤه سنة ١٩٢٦م أن يرشّح نفسه في انتخاب الجمعية التشريعية في بنجاب، فأيّده الناس وانتخب بغير عناء، ولا تزال خطبه في هذه الجمعية شاهدة بعمله فيها، ودعا الناس إلى الاتحاد لخلاص البلاد من الاستعمار والتأخر(٢٦).

دعوته إلى إنشاء دولة باكستان

كذلك عمل إقبال في حزب الرابطة الإسلامية الذي كان محمد علي جناح الملقب بالقائد الأعظم رئيسًا له، وكتب إقبال إليه في سنة ١٩٣٧م فقال له فيما قال: "إن خير وسيلة إلى السلام في الهند في هذه الأحوال أن تقسم البلاد على قواعد جنسية ودينية ولغوية، وأن المسلمين والهنادكة لا يمكن أن يسيروا في قافلة واحدة إذ لا يمكن أن يجتمع الكفر والإسلام"(٢٧).

وتحدث إقبال ذات مرة للعلامة أبي الحسن الندوي في سنة ١٩٣٧م قبل إنشاء باكستان فقال: "إن أمة لا تملك أرضا تستند إليها لا دين لها ولا حضارة، فإنما الدين والحضارة بالحكومة والقوة، وإن إنشاء باكستان هو الحل الوحيد للمشاكل التي يواجهها المسلمون في هذه القارة الهندية، وهي الحل الوحيد للمشكلة الاقتصادية، وأشار إلى نظام الزكاة وبيت المال في الإسلام"(٢٨).

فكان إقبال أوّل من دعا إلى تقسيم الهند بأن يكون للمسلمين بها موطن يخصهم، وللهنادكة موطن يخصهم(٢٩) وقبل مشروع إقبال في سنة ١٩٤٠م ونادى به محمد علي جناح وجاهد من أجله(٣٠) حتى قامت دولة باكستان الإسلامية في سنة ١٩٤٧م(٣١).

وكان إقبال مثل كل المفكرين، كثير التفكير، قليل الكلام، وكان سكوته وقودًا لما يعتلج في نفسه من أمور ينفثها شعرا وحكما، وكان أمر المسلمين شغله الشاغل، ووضعهم يؤلمه ويعذبه، وقد أدرك بسداد رأيه الخطر الذي يهدد مسلمي الهند فأيقظ المسلمين وحذّرهم(٣٢).

٢٦- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٦٢.

٢٧- محمد حسن الأعظمي، **حقيقة باكستان أكبر دولة إسلامية في العالم**، طبعة القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٤٤.

٢٨- **روائع إقبال**، ص ١٧.

٢٩- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٦٤.

٣٠- **حقيقة باكستان**، ص ٤٤، إحسان حقي، **باكستان ماضيها وحاضرها**، طبعة بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص ١٨٧.

٣١- اقرأ ترجمة: خطب إقبال في كتاب **فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية في الهند وباكستان**، طبعة القاهرة، ١٩٥٠م.

٣٢- إحسان حقي، **مجلة الوعي**، العدد الخامس عشر، يناير ١٩٧١م صادر من قسم الصحافة بسفارة باكستان في بيروت، ص ٣٠.

ورأى إقبال أن المسلمين في حاجة إلى دراسة دينهم دراسة علمية لكي يستطيعوا الوقوف أمام الدعايات المعادية ولذلك أسّس "المجمع العلمي الإسلامي للأبحاث" وضمّ إليه فريقا كبيرا من الزعماء والعلماء المرموقين، وكان يرمي من وراء ذلك إلى إيجاد حركة إسلامية علمية تقوم على طريقة البحث العلمي الحديث لمقاومة التيارات المعادية التي تكالبت على الإسلام والمسلمين، وهذه ناحية من نواحي إشعاع إقبال في العالم الإسلامي(٣٣).

وهكذا خدم إقبال بلاده عن طريق الشعر والعلم وعن طريق المحاماة والسياسة، بل نجح في تاثيره في الرأي العام حتى أصبحت للمسلمين في شبه القارة الهندية دولة مستقلة ذات سيادة كباكستان الإسلامية.

دعوته إلى اتحاد العالم الإسلامي

العلامة إقبال الذي طالب بتقسيم شبه القارة الهندية إلى دولتين: دولة للمسلمين باسم "دولة باكستان" ودولة للهنود باسم "دولة الهند"، وذلك لاختلاف الدين بين المجموعتين وأسباب أخرى، هو نفس إقبال الذي كان يدعو دائما في شعره وخطبه وكتاباته إلى اتحاد العالم الإسلامي، إيمانا منه بقوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾(٣٤).

وكان إقبال حريصا على نشر هذه الدعوة، ولذلك فإنه عندما سمع بوجود أحد كبار علماء الإسلام سماحة الشيخ مبشر الطرازي الحسيني في مدينة دهلي للعلاج من مرض ألم به لدى أحد مشاهير الأطباء المسلمين في الهند الدكتور مختار الأنصاري، فإن إقبال سافر من لاهور إلى دهلي لمقابلة سماحة الطرازي، وناقش معه بعض المسائل الهامة التي تتعلق بالشؤون الإسلامية، وطلب منه أن يلقي محاضرة بعنوان: "وجوب اتحاد العالم الإسلامي" في الاحتفال السنوي لجمعية حماية الإسلام في لاهور، وقبل سماحته الدعوة، وكان ذلك في سنة ١٣٥٤هـ، ١٩٣٦م، ثم استمرت المكاتبات الودية بين العلامة إقبال وسماحة الطرازي لخير الإسلام والمسلمين، إلى أن توفي إقبال في سنة ١٩٣٨م رحمه الله.

ولكن جهود العلامة إقبال في سبيل نشر هذه الفكرة الإسلامية تركت آثارا طيبة في نفوس المسلمين في شبه القارة الهندية، فزاد تمسك المسلمين بها بعد قيام دولة باكستان الإسلامية.

ففي سنة ١٩٦٤م، ١٣٨٤هـ نشرت مجلة **منبر الإسلام**، بالقاهرة حديثًا لسفير باكستان حول

٣٣- **حقيقة باكستان**، ص ٦٨.

٣٤- سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

إمكانية الاتحاد الإسلامي، فكتب سماحة الطرازي ـ معلقا على ذلك ـ مقالا تحت عنوان "نحو الاتحاد الإسلامي" ومما جاء فيه قوله:

"اطلعت في **منبر الإسلام** على حديث لمعالي سميع الله خان سفير باكستان في القاهرة، وفي ضمنه جواب من معاليه لسؤال: "هل يمكن قيام وحدة بين شعوب العالم الإسلامي وكيف يتحقق ذلك؟" ويبدأ معاليه بقوله: "إن مما لا شك فيه أن باكستان تطالب بالوحدة الإسلامية، كما يطلبها الدين الإسلامي ... إلخ"[٣٥].

أقول: إن معالي سفير باكستان قد أعرب في جوابه هذا (لهذا السؤال الخطير الذي يهم المسلمين جميعا) عن صميم الوعي القومي في دولة باكستان الإسلامية، وبتعبير آخر قد أعرب عما يريده الشعب المسلم الباكستاني الذي عرف بنزعاته نحو السياسة التي رسمها الدين الإسلامي في تعاليمه القدسية، سواء كانت في الشؤون الاجتماعية أم في المجالات الدولية، وباعتصامه بحبل الله المتين، وتمسكه بسنة رسوله الأمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولا أقول هذا إلا عن معرفة وممارسة، فقد جمعني تاريخ حياتي بهذا الشعب المسلم عدة مرات (قبل استقلال شبه القارة الهندية وتقسيمها إلى الهند وباكستان) وكان أولها سنة ١٣٥٠ هـ عند مروري بهذه القارة العظيمة في وفد من قبل المغفور له جلالة الملك نادر شاه ملك أفغانستان موفدا إلى المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية لعقد أول معاهدة الصداقة بين البلدين. وآخرها سنة ١٣٥٤هـ، ١٩٣٦م حينما كنت في دهلي (عاصمة الهند) تحت العلاج لمرض ألم بي، وفي أثناء إلقاء الكلمات في حفلات التكريم لي في جمعية علماء الهند وبعض الجامعات والهيئات الإسلامية، وفي المقابلات مع كبار الشخصيات منهم: مولانا كفاية الله (مفتي الهند الأكبر)، ومولانا سعيد أحمد (سحبان الهند)، ومولانا حسين أحمد المدني، وبعض أعضاء جمعية مسلم ليگ رحمهم الله، علمت مدى اهتمام زعماء هذه القارة وعامة المسلمين فيها بالعلاقات الودية مع الشعوب العربية والإسلامية، فقد كانوا يقدسون الأخوة الإسلامية ويقدرون حقوقها، ويميلون كل الميل نحو اتحاد المسلمين في قضايا العروبة والإسلام، ويعتقدون أن تحررهم من الاستعمار البريطاني ونيلهم الاستقلال وتقرير المصير الذي كانوا ينشدونه إنما يتيسر لهم في ظل الأخوة الإسلامية واتحاد المسلمين، وكان ذلك إيمانا منهم بقول الله عزوجل: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ

٣٥- مجلة **منبر الإسلام**، عدد جمادى الأولى سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، القاهرة.

أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[٣٦]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٣٧]، وقوله: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[٣٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٣٩]، وكذلك اعتقادا منهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاضدهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٤٠] وبقوله: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا"[٤١].

وقد وجه إلي الأستاذ هلال أحمد زبيري مدير جريدة **الجمعية** في دهلي أسئلة على رأسها سؤال يقول: ما علاج فاجعة الإسلام؟ (يريد الاستعمار ومشاكله) فقلت: الأخوة والاتحاد، مع شرح الجواب، فقابل الجواب كل تأييد وترحيب من قبل رجال المجتمع الإسلامي في شبه القارة الهندية حتى إن الدكتور إقبال فيلسوف باكستان حضر من لاهور إلى دهلي بعد مطالعة جوابي، وقابلني ورحب بالفكرة ودعاني لإلقاء محاضرة في موضوع "وجوب اتحاد العالم الإسلامي" في المؤتمر السنوي لجمعية "حماية الإسلام" بلاهور التي كان يرأسها، ثم وجهت إلى الدعوة من قبل نفس الجمعية ونشرت في الصحف، وقد تم إلقاء المحاضرة في حديقة حبيب الله هال بلاهور وكان عدد الحاضرين بين سبعة أو ثمانية آلاف مسلم، حضروا المؤتمر السنوي من جميع أقطار شبه القارة الهندية، وقد ترجمت المحاضرة من العربية إلى الأردية وطبعت ونشرت غير مرة في أقطار الهند، وتوجد نسخة من هذه المحاضرة في دار الكتب المصرية. وفي أثناء إقامتي في قصر النواب نياز علي خان عضو الشرف لهذه الجمعية، حضر لمقابلتي مولانا ظفر علي خان رحمه الله مدير جريدة **زميندار** أكبر جريدة في تلك القارة وطلب مني أن أملي عليه بيانا موجها في موضوع (الاتحاد والتكتل) إلى عامة المسلمين في أقطار الهند، وقد نشر بعنوان: "علامہ طرازی کا پیغام مسلمانان ہند کے نام" أي

٣٦- سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

٣٧- سورة الحجرات، الآية: ١٠.

٣٨- سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

٣٩- سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

٤٠- انظر: **صحيح البخاري**، باب الأدب، رقم: ٣٧، و**صحيح مسلم**، باب البر، رقم: ٦٦، و**مسند أحمد بن حنبل**، ج٤، ص٢٧٠.

٤١- انظر: **صحيح البخاري**، باب الصلاة، رقم: ٨٨، وباب الأدب، رقم: ٧٦، وباب المظالم، رقم: ٥، و**صحيح مسلم**، باب البر، رقم: ٦٥، و**جامع الترمذي**، باب البر، رقم: ١٨، و**سنن النسائي**، باب الزكاة، رقم: ٦٧، و**مسند أحمد بن حنبل**، ج ٤، ص ١٠٤-١٠٥.

رسالة العلامة الطرازي إلى مسلمي الهند.

"وأريد أن أقول: إن هذا وذاك كله يدل على أن الشعب المسلم الذي نال استقلاله وقرر مصيره بتأسيس دولة باكستان الإسلامية سنة ١٩٤٧م والذي يزيد عدده على خمسة وسبعين مليونا من المسلمين، يريدون تطبيق تعليمات الدين الإسلامي شؤون حياتهم الدينية والاجتماعية والسياسية، ويرحبون بالاتحاد الإسلامي الذي يضم المسلمين عربا وعجما، ومما يذكر هنا أن المغفور له محمد علي جناح مؤسس دولة باكستان كان من الداعين إلى الاتحاد الإسلامي، وكان من كبار أعضاء الرابطة الإسلامية التي أسسها الزعيم الكبير مولانا محمد علي رحمه الله لهذا الغرض المقدس".

"نعم ـ إن الاتحاد الإسلامي بين شعوب المسلمين ممكن كل الإمكان وذلك على أساس الأخوة الإسلامية وسياسة السلف الصالحين رضي الله عنهم أجمعين، وقد أثبت هذا الإمكان الأستاذ محمد حسن أعظمي عميد كلية اللغة العربية بكراتشي في كتابه **الوحدة في الشرق** ونقل جانبا من محاضراتي آنفة الذكر من الصفحة ٤٦-٥٠ وذلك للاستشهاد ضد المخالفين".

ثم قال سماحة الطرازي في ختام مقاله الطويل: "ونحن نسأل الله العلي القدير أن يوفق فخامة الرئيس محمد أيوب خان لباكستان وجميع ملوك ورؤساء الدول العربية والإسلامية بتأدية الواجب نحو الاتحاد الإسلامي"(٤٢) ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾(٤٣).

دفاعه عن أمجاد الإسلام

في أواخر الأعوام العشرين الأولى من القرن العشرين ماجت شبه القارة الهندية الإسلامية بتيارين فكريين متلاطمين، وكانت غاية التيار الأول أن يأخذ المسلمون بحضارة الغرب في مظاهرها العلمية والروحية والسياسية، مسايرة منهم لمن ينطلقون في سبيلهم قدما، أما التيار الثاني فكان يخالف الغرب، داعيا المسلمين إلى الاعتصام بدينهم وحده لعلهم يفلحون فإن فيه غنى لهم عن كل ما قد يرد عليهم من أباطيل الغرب وأضاليله.

٤٢- مجلة منبر **الإسلام**، عدد جمادى الأولى، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، القاهرة.

٤٣- سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

وفي مثل هذا المعترك الفكري الروحي قضى إقبال الشطر الثاني من حياته التي امتدت بين عام ١٨٧٧م وعام ١٩٣٨م، وأما الشطر الأول منها فأخبط فيه ببيئة سيطرت عليها الثقافة الإسلامية والهندوكية والإنجليزية(٤٤).

وخلاصة رأي إقبال في صلة المسلمين بالعرب كما وردت في كتاب له بالإنجليزية عنوانه: **إعادة تشكيل الفكر الديني في الإسلام**(٤٥)، أن أظهر مظهر في التاريخ الحديث هو اندفاع المسلمين اندفاعا فكريا وثقافيا نحو الغرب، ولن يعد هذا من الخطأ، لأن التقدم الحضاري في جانبه الفكري عند الأوربيين ليس إلا تتمة لتطور بعض مظاهره الهامة عند المسلمين، ولكن أخوف ما نخاف أن يبهرنا بريق سطحي للحضارة ويضلنا عن لبابها ويصدنا عن حقيقتها(٤٦).

وقد قام عدد من العلماء والمفكرين في شبه القارة الهندية كالشيخ محمد علي جوهر والشيخ أبي الأعلى المودودي والدكتور محمد إقبال، بدراسة الحضارة العربية ومشاكل العصر، وعرفوا محاسن الحضارة المعاصرة ومساويها، وحللوها تحليلا علميا، فتركوا تأثيرا في الفكر الإسلامي المعاصر، ولكن العالم العربي لم يطلع على أفكار هؤلاء القادة والمفكرين إلا بعد مدة من الزمن، بعد ما نقلت أفكارهم إلى اللغة العربية، وكانت الضربة الأولى على الحضارة الغربية من الدكتور محمد إقبال الذي كان أشده بأسا وأكثرهم حماسة لأنه لم يكن مدافعا أو ناقدا سلبيا للحضارة الغربية، أو موافقا بين الإسلام والحضارة التليد للأمة الإسلامية ويشكو بؤسها وشقاءها وبطش أوربا، وكان يحلل أسباب الانحطاط، ويدعو إلى إنعاش روح الإيمان في المسلمين(٤٧).

وقد جمع إقبال بين الفكر والعقل والعاطفة والقلب والعلم الصحيح، فكان هائما بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأصحابه البررة وأبطال الإسلام، فألهب الضمائر وأشعر القلوب بذكرهم، والدعوة إلى الاقتداء بهم، وبعث روح الاستعلاء والاعتزاز بنعمة الإسلام في قلوب المسلمين، وكان لحديثه عن كل ذلك في الشعر لون جديد لا يوجد له النظير في اللغة الأردية وفي اللغات المعاصرة، فيقول إقبال ما معناه:

"إن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار، ويساير الركب البشري حيث اتجه وسار، بل خلق

٤٤- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٣٧.

٤٥- **إعادة تشكيل الفكر الديني في الإسلام**.

٤٦- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٣٧.

٤٧- المصدر السابق، ص ٣٧.

ليوجّه العالم والمجتمع والمدنية ويفرض على البشرية اتجاهه، ويملي عليها إرادته لأنه صاحب الرسالة، وصاحب العلم واليقين، ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهه، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع وإنما مقامه مقام القيادة والتوجيه"(٤٨).

وكان إقبال معتزا بتراث الإسلام وحضارته وتاريخه وما خلده أعلام الإسلام من علوم، وما أبدعوا من فنون وروائع الفكر، وكان ينظر إلى التاريخ الإسلامي نظرة احترام وتمجيد لا استهانة ونقد، كما فعل بعض الكتاب، ولم يكن يدعو إلى تقليد أوربا بل كان يدعو إلى إحياء التاريخ الإسلامي ويمجد دور الأوائل من حملة الإسلام ويتغنى بما فعله هؤلاء الأوائل، ومع ذلك كان يدعو إلى الأخذ من العلوم العصرية ما يلائم طبيعة هذه الأمة والنبوغ فيها. لأن الإيمان بالله والاقتباس من أثر الرسول صلى الله عليه وسلم والاعتزاز بتاريخ الإسلام، والإيمان بسداده وصلاحيته للقيادة في هذا العصر، وإبراز الشخصية الإسلامية، واستعادة الأصالة والذاتية، يشكل معالم الطريق إلى استعادة المجد للمسلمين.

لقد عاش إقبال مدة حياته في حب الرسول صلى الله عليه وسلم والأشواق إلى مدينته المباركة، وتغنى بهما في شعره الخالد، وفي آخر حياته كلما ذكرت المدينة فاضت عيناه وانهمرتا بالدموع، وقد قال شعرا كثيرا في مكة المكرمة والمدينة المنورة منبع الإسلام.

نبوغه في الشعر وشهرته العالمية

اهتمامه بالشعر

كان إقبال وهو طالب في المدرسة ينظم الشعر، ويزداد على مر الأيام إحسانا فيه، وكان يرسل بين الحين والحين شعره إلى شاعر "داغ"، أحد الشعراء الأرديين، ونظر الشاعر الكبير في قصائد الشاعر إقبال الشادي، ثم كتب إليه أن لا ترسل إلي شعرك فإنه لا يحتاج إلى تنقيح، وعاش داغ حتى ذاع صيت إقبال وبلغ في الشعر ما بلغ، فكان الشاعر الكبير داغ يفخر بأنه نقح شعر إقبال في صباه(٤٩).

ثم تخرج إقبال من الجامعة ودوّى صوته في محافل الأدب، تنشد قصائده، وحرصت الصحف على نشر شعره وقد أيقن الشعراء والعلماء في الهند أن لهذا الشاب شأنا عظيما.

وإن أول قصائده الرنانة التي ألقيت في جمع حاشد كانت قصيدته التي أنشدها في الحفل السنوي

٤٨- **روائع إقبال**، ص ٣١.

٤٩- المرجع السابق، ص ٢٣.

لـ: "جمعية حماية الإسلام"[٥٠] في لاهور سنة ١٨٩٩م وعنوانها "أنين يتيم"[٥١] وبعد ذلك نشرت قصائده في الصحف في موضوعات اجتماعية وسياسية بالإضافة إلى ترجمة قصائد إنجليزية قام بترجمتها[٥٢].

ومن قصائد إقبال قصيدة بديعة نظمها عندما كان طالبا بالجامعة بعنوان "جبل همالايا" وهي فارسية التركيب إنجليزية الأفكار، ونشرها الأستاذ عبد القادر في مجلته **مخزن** سنة ١٩٠١م، ثم نظم عدة قصائد أدبية كان لها دويّ في أندية الشعر والأدب وجذبت الأنظار نحو الشاعر الشاب المبدع[٥٣].

بعد الحرب البلقانية

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠م، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثر، وجرحت عواطفه وقلبه فهاج خاطره وجعلت منه عدوا لدودا للحضارة الغربية، وأملاه حزنه قصائد كلها دموع حارة في سبيل المسلمين، وسهام مسمومة في صدور الأوربيين، وتتجلى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة، فمن قصائده "البلاد الإسلامية" وهي رد على فكرة القومية ودعوة إلى الجامعة الإسلامية و "يا هلال العيد" و "المسلم" و "فاطمة بنت عبد الله" شهيدة جهاد طرابلس و "محاصرة أدرنة" و "الصديق" و "بلال" و "الحضارة الحديثة" و "الدين" و "شكوى إلى الرسول" يشكو حال الأمة الإسلامية[٥٤].

بعد البركان الأوربي سنة ١٩١٤م

ثم انفجر البركان الأوربي سنة ١٩١٤م، وحدث ما حدث فانقلب الشاعر داعيا مجاهدا، وحكيما فيلسوفا، ينظم الحكم ويشب من حماسته نيرانا، ويفجر بإيمانه وثقته أنهارا، وجاش صدره وفاض خاطره وسالت قريحته، وفي تلك المدة نظم غُرّ قصائده، منها: "الشاعر والتجوال في الصحراء" و "الحياة" و "الحكومة" و "الرأسمالية" و "الأخير" و "عالم الإسلام" و "طلوع الإسلام" وكلها آية من الشعر والحكمة والحماسة وحقائق الحياة، وأما "طلوع الإسلام" فهي بيت القصيدة في شعره لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلامي في القوة والانسجام. وقد طبع سنة ١٩٢٤م أول مجموعة شعرية باسم **بانگ درا** يعني

٥٠- أنجمن حمايت إسلام.

٥١- **ناله يتيمى**.

٥٢- **روائع إقبال**، ص ٣٤.

٥٣- المرجع السابق، ص ٣٦.

٥٤- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٤٦.

جرس القافلة، فكان اهتمام الناس به عظيما، وحظي من القبول ما لم يحظ شاعر، وأعيد مرارا بعدد كبير(٥٥).

آثاره الأدبية ودواوينه الشعرية

ثم بدأ العهد الأخير في حياة العلامة إقبال ورغم إصابته بمرض القلب في السنوات الباقية من عمره فنراه قويا بإيمانه بالله، وتمسكه بتعاليم الإسلام، وقد ازداد فكره نضجا، وأفق معارفه اتساعا، وانتظمت دعوته واتضحت رسالته، وكثرت أعماله الأدبية الفكرية، وبذلك قدم للأدب الإسلامي خدمات جليلة.

ونشرت له عدة كتب فارسية، وقد آثر إقبال اللغة الفارسية لشعره لأنها أوسع من الأردية، وهي اللغة الإسلامية التي تلي اللغة العربية في الأهمية والانتشار في العالم الإسلامي، ويتكلم بها قطران مهمان: إيران وأفغانستان، ويفهمها أهل الهند، وأهل تركستان وبخارى وتركيا، ونشر مجموعتين بالأردية. وأما الدواوين باللغة الفارسية فهي **أسرار خودي** يعني "أسرار معرفة الذات" و **رموز بيخودي** يعني "أسرار فناء الذات" و **پيام مشرق** يعني "رسالة الشرق" في جواب كتاب جوتة **تحية الغرب** و **زبور عجم** و **جاويد نامة** و **پس چه بايد كرد أي أقوام شرق**؟ يعني "ماذا ينبغي أن تعمله الشعوب الشرقية؟" و**مسافر** و **أرمغان حجاز** يعني "هدية الحجاز" وكذلك باللغة الأردية **بال جبريل** يعني "جناح جبريل" و **ضرب كليم** يعني "ضرب موسى"(٥٦).

وهناك محاضرات ألقاها في مدينة "مدراس" الهندية طبعت فيما بعد على شكل كتاب باسم **The Reconstruction of Religious Thought in Islam**(٥٧) ومحاضرات ألقاها في جامعة كمبرج، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون وعلماء الفلسفة والدين اعتناء عظيما، وعلقوا عليها أهمية كبيرة، وترجم أكثر كتبه إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والروسية، وممن تولى هذا النقل الأستاذ الإنجليزي الشهير الدكتور نكلس، فترجم إلى الإنجليزية **أسرار خودي** و **رموز بيخودي** وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره وفلسفة. وجاءته الدعوة من لندن ومن حكومة فرنسا

٥٥- جريدة **عكاظ** في عدد الأربعاء ٢٥ ربيع الثاني، ١٤٠٥هـ حول محاضرة سماحة الشيخ الندوي ألقاها بنادي المدينة الأدبي عن دور إقبال في توجيه الأدب والشعر.

٥٦- انظر: **حقيقة باكستان**، ص ٦٥ وكذلك مقال الدكتور إحسان حقي في **مجلة الوعي**، ص ٣٠.

٥٧- **إعادة تشكيل الفكر الديني في الإسلام**.

وإسبانيا وإيطاليا، فزار القطرين الأخيرين، وألقى في مدريد محاضرات في الفن الإسلامي، وزار مسجد قرطبة، وصلى فيه لأول مرة في التاريخ بعد جلاء المسلمين. وذرف على تربته دموعا غزار، وتذكر العرب الأولين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون، واستنشق في جوه وهوائه أريج حضاراتهم، وشعر كأن المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين، وجوّ قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان وظمأه إلى ذلك، فقال الشعر الرقيق الذي يعدّ من القطع الأدبية الخالدة، ونظم قصيدة من أبدع قصائده(٥٨).

دور إقبال في توجيه الأدب العالمي

وكان إقبال بعد أن علم ما علم، ورأى ما رأى في الهند وأوربا يتنازعه طريقان في الحياة، طريق العمل وطريق الفكر، وبدا له حينا أن يهجر الشعر، ولكن صديقه السيد عبد القادر وأستاذه توماس آرنولد نصحاه أن يستمر على نظم الشعر، وما كان أعظمها خسارة للأدب الإسلامي وأدب العالم كله لو هجر إقبال الشعر فلم يخرج للناس دواوينه التسعة(٥٩).

ويقول العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي عن دور إقبال في توجيه الأدب بأنه قد جمع في أدبه بين دراسات دقيقة شاملة جامعة للفلسفة الحديثة والقديمة، وأن رسالته كانت أدبية عالمية، فكان لسان الأدب والشعر، وأن إقبال أنشأ مدرسة جديدة في الشعر فأثر في التركيب الشعري والأدبي وامتد تأثيره للأخيلة والمعاني الجديدة، وأنه خدم الإسلام والإنسانية خدمة لا يجاريه فيها في مجال الأدب أحد، كما أثر في الجيل المثقف الجديد في شبه القارة الهندية بدور فريد لا يعرف لأحد من أقطاب الفكر ومن نوابغ هذا العصر الحديث(٦٠).

ولقد اشتهر إقبال في الشرق والغرب منذ شبابه، وطار صيته في الآفاق حيثما حلق شعره الذي ترجم إلى لغات كثيرة، كما كتب عنه كثير من المفكرين أشياء كثيرة، ولكن إقبال لم يكن شاعرا أديبا فحسب بل كان عالما صالحا، ومفكرا حكيما، وحقوقيا بارعا، وزعيما سياسيا مرموقا، فنواحيه إذن عديدة ولذلك أصبحت جوانب من حياته مواضيع للحصول على درجات الماجستير والدكتوراة(٦١).

٥٨- **روائع إقبال**، ص ١١-١٢.

٥٩- المرجع السابق، ص ٢٤-٢٥.

٦٠- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٧١، وكذلك انظر: **قرآن اور إقبال** (القرآن وإقبال) بالأردية، ص ١٩.

٦١- **محمد إقبال سيرته وفلسفته**، ص ٧٢.

من قصائد الشعراء في إقبال

وهناك كثير من الشعراء في العالم الإسلامي من العرب وغيرهم قالوا قصائد رائعة في إقبال في مناسبات مختلفة، فمن هؤلاء على سبيل المثال الشاعر الأديب والمؤرخ الجليل المرحوم الأستاذ محمد عبدالغني حسن، وقد جاء في قصيدته بعنوان: "محمد إقبال شاعر القوة في الحياة":

أيها المسلم القوي النضال
أيها الشاعر الرفيع المثال
يا أخا الحق يا أبا الإقبال
لك ما تحية الإسلام
كنت صوتا للمسلمين قويا
ملأ الأرض رجفة ودويا
وبيانا عذبا، وشعرا وضيئا
سائغا في العقول والأفهام
هاهنا، هاهنا محبوك جاءوا
تشهد الأرض جمعهم والسماء
جمع الحب بينهم والوفاء
إنما الحب قوة في الأنام(٦٢)

سماحة الشيخ الندوي يعبر عن إعجابه

يعبر سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي عن إعجابه الشديد بشعر إقبال بقوله: "إن أسباب الإعجاب بشعر إقبال كثيرة، وللمعجبين به أن يتحدثوا عن أسباب إعجابهم، وهي ترجع في الغالب إلى موافقة الهوى والتعبير عن النفس، فالإنسان إنما يحب نفسه، ويطوف حولها، ويعيش فيها ويحب كل ما وافق نفسه، وترجم عن ضميره، ولا أبرئ نفسي فربما أحببت شعر إقبال لأني رأيته يوافق هواي، ويعبر عن ضميري وخواطري، وينسجم مع عقيدتي وتفكيري، ويتناغم مع عاطفتي ومشاعري.

إن أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو: الطموح والحب والإيمان، وقد تجلى هذا المزيج الجميل في شعره وفي رسالته أعظم ما تجلى في شعر معاصر، ورأيت نفسي قد طبعت على الطموح والحب

٦٢- انظر: **إقبال الشاعر الثائر**، ص ٣٦-٣٨.

والإيمان، وهي تندفع اندفاعا قويا إلى كل أدب ورسالته يبعثان الطموح وسمو النفس وبعد النظر والحرص على سيادة الإسلام وتسخير هذا الكون لصالحه، والسيطرة على النفس والآفاق، ويغذيان الحب والعاطفة، ويبعثان الإيمان بالله والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ويعبقرية سيرته وخلود رسالته وعموم إمامته للأجيال البشرية كلها.

إنني أحببت وشغلت به كشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة، وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادية، وأعظم ناقد لها وحاقد عليها، وكداعية إلى المجد الإسلامي وسيادة المسلم، ومن أكبر المحاربين للوطنية والقومية الضيقتين، وأعظم الدعاة إلى النزعة الإنسانية والجامعة الإسلامية(٦٣).

ثم يقول سماحة الشيخ الندوي: إن جل ما أعتقده أن إقبال شاعر أنطقه الله ببعض الحكم والحقائق في هذا العصر، أنطقه الله كما أنطق الشعراء والحكماء قبل عصره، إنني أعتقد أنه كان صاحب فكرة واضحة، وعقيدة راسخة عن خلود الرسالة المحمدية وعمومها، عن خلود هذه الأمة وصلاحيتها للبقاء والازدهار، وعن كرامة المسلم وأنه خلق ليقود ويسود، وعن تهافت المبادئ والفلسفات والدعوات التي ظهرت في هذا العصر كالقومية والشيوعية والتحمس لها، والشجاعة في نشرها، وأخيرا لا آخرا وجدته شاعر الطموح والحب والإيمان، وأشهد على نفسي أني كلما قرأت شعره جاش خاطري وثارت عواطفي، وشعرت بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي وبحركة الحماسة الإسلامية في عروقي، وتلك قيمة شعره وأدبه في نظري.

مرضه ووفاته رحمه الله

في سنة ١٩٣٥م توفيت زوجة إقبال، شريكة حياته، الزوجة الصالحة التي قاسمته كفاحه وآلامه، فأحزنه موتها كثيرا، ثم أصيب بعلة القلب التي استمرت تنقص من قوة جسمه تدريجا، ولكنها لا تنال من عقله وروحه شيئا، فلم ينقطع عن التفكير والبيان ونظم الشعر حتى الأيام الأخيرة من عمره(٦٤).

واشتدت عليه العلة في الشهور الأخيرة من حياته، وبلغت مبلغ الخطر حتى انتقل إلى رحمة الله في ٢١ نسيان (أبريل) سنة ١٩٣٨م(٦٥) وكان عمره سبعا وستين سنة، وكان يحسّ بقرب أجله ويذكره

٦٣- **إقبال الشاعر الثائر**، ص ٣٩-٤٢.

٦٤- علامة محمد إقبال، **بانگ درا**، مجموعة قصائد، الطبعة الثالثة والعشرون، لاهور، ١٩٦٥م، ص ١٨٧ من قصيدة "الشكوى" بالأردية.

٦٥- الشيخ الصاوي شعلان والأستاذ محمد حسن الأعظمي، **إقبال كا اسفد حيات وموت**، القاهرة، ص ٣٥ قصيدة أردية.

غير هائب ولا جازع، وقد أنشد قبل موته بنحو عشر دقائق أبياتا من الشعر منها هذا البيت:

آية المؤمن أن يلقى الـردى

باسم الثغـر سرورا ورضى

ثم وضع يده على قلبه قائلا: الآن قد بلغ الألم إلى هنا، وحمد الله وأسلم الروح إلى خالقها وهو مبتسم رحمه الله(٦٦).

نماذج من شعر إقبال في فلسفة الحياة والموت

دوافع فلسفة الحياة والموت

لكل فكرة تخطر على بال أي إنسان دوافع، وما هي بواعث فلسفة الحياة والموت عند "إقبال" وما هي الدوافع التي أشعلت هذه الفلسفة، فجعلتها ملتهبة كالنار، قوية كالسيول الجارفة، نابضة بالحيوة والخلود، ناطقة بالأمل والتفاؤل؟

لقد نظر "إقبال" حوله فرأى المسلمين يرتعون في بيداء الجهالة، ويضربون في فيافي الغفلة، والإسلام الناصع القوي أصبح عنوان الذلة والفقر والضياع، وصار المسلمون محكومين أذلاء بعد أن كانوا حاكمين كرماء. ترى ما هو الداء الذي نخر في أجساد الأمة الإسلامية فأورثها سوء المآل؟

كان أول داء وقعت عين "إقبال" عليه عند المسلمين هو "الخوف من الموت والحرص على الحياة" بعد أن تمزقت صفوفهم وتفرق شملهم فيرى أنه يجب عليهم أن يعودوا إلى ذاتهم لأنها مصدر الحركة والعمل ومصدر النور والحياة، ومركز الإنسانية ومدار الخلود، ويجب عليهم أن يقوّوها ويدعموها وينفوا عنها الخوف والجبن والحرص والغبى، ويردوها إلى الطريق الحق، لأن الذات هي الأصل ومنها البداية، وإهمال الذات هو عين الجهل وأسّ البلاء(٦٧).

والداء الثاني الذي أصيب به المسلمون هو "فساد العقيدة" فيجب عليهم أن يتمسكوا بتعاليم الإسلام الصحيحة، وبدون ذلك لا قيمة لهم في الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

والداء الثالث هو أن المسلمين إذا صدمتهم الحقيقة المرة فإنهم بدلا من أن ينفضوا عن كاهلهم غبار التقاعس والكسل ويقفزوا من جديد إلى سلم الكفاح والمجد فإنهم يقولون: وماذا نعمل؟ هذا قضاء الله وقدره وما باليد حيلة، وليس علينا إلا الاستسلام لأمر الله، هكذا يقولون لأنفسهم دون أن يأخذوا للأمر

٦٦- **إقبال كا فلسفہ حیات وموت**، ص ٣٦ من قصيدة أردية.

٦٧- المرجع السابق، ص ٣٩ من قصيدة فارسية.

عُدته، كي يهزموا صعوبات الحياة، ويتغلبوا على عقباتها، حتى يصلوا إلى المرتبة الكريمة التي أرادها الله لهم.

والداء الرابع هو أن المسلمين ينظرون إلى ما يعتريهم من آلام ويكتنف حياتهم من نكبات على أنه عنوان للحظ المنحوس وسوء الطالع، ويحسبون أن الحياة السهلة والنعمة السخية هي الدليل الأوحد على رضا الله ورحمته بهم، لقد أغمض المسلمون عيونهم عن منابع دينهم الأولى ونسوا أن الله قد يختار أقواما لابتلائه حتى يرى ماذا سيكون من شأنهم حينما تدلهم الخطوب، ونسوا أن المؤمن الحق يشكر النعماء ويحمد الله على الضراء ويظل يعمل ويكافح حتى يخرج من محنته، وقد ازداد معدنه نفاسة، وجوهره قيمة وقدرا(٦٨).

وشاعرنا الفيلسوف إقبال يفكر في فلسفة الحياة والموت من هذه الزوايا المختلفة ويبيّن أسباب الحالة التي عليها المسلمون، ثم يوضح الطرق التي توصلهم إلى المجد والرفعة وإلى العزة والسعادة.

نماذج من شعره في فلسفة الحياة والموت

لقد كان شبح الموت الرهيب يبدو أمام الناس جسيما عظيما، وبقدر ما كانت جسامته وخطره فإنه كان يبدو في عين إقبال ضئيلا متلاشيا، لعله كان يرى أن العقبة في طريق رقي المسلمين هي مخافة الموت، ووجد أن الخوف من الموت معناه أمر واحد وهو ترجيح الذلة والعبودية على موت العزة والكرامة، فحاول أن ينتزع هذا المرض النفسي من صدور أهل الإسلام مبينا أن خوف الموت والإيمان لا يجتمعان في قلب واحد، وأن الذين تسنموا سلم المجد والشرف هم الذين حملوا رؤوسهم على أكفهم في ميدان الكفاح، لا تنخلع قلوبهم خوفا، ولا ترتعش عزائمهم جبنا، وإنما يقبلون على الموت إقبالهم على العرس، مؤمنين بالفور في الدنيا والسعادة بلقاء الله في الآخرة.

ويذكرنا إقبال بأسلافنا الذين جاهدوا في سبيل الله لنشر دين الإسلام، ففتحوا الممالك وحكموا الدول، بعد أن وطئت خيولهم القلاع والحصون، وما اشتروا هذا المجد إلا بدمائهم، فهو يذكرنا بهذه الحقيقة ويقول:

فوق الصوامع والكنائس صوتنا ... قد كان يعلو بالأذان جهارا
تترنم الصحراء في إفريقيا ... بصلاتنا وتسابق الأطيارا
كنا نقدم للسيوف صدورنا ... لم نخش يوما غاشما جبارا(٦٩)

٦٨- **إقبال كا فلسفہ حیات وموت**، ص ٤٥ من قصيدة فارسية.

٦٩- **إقبال كا فلسفہ حیات وموت**، ص ٤٧ من قصيدة أردية.

ويصف إقبال ذلك المسلم الذي كان ينطلق كالسهم النافذ إلى العدو بعد أن يكبر تكبيرة الجهاد في الميدان، فيقول:

ذلك المؤمن المجاهد يعشى غمـــرة الحرب والـــردى يخشـــاه
تحت ظل السيوف ماض قوي درعـــه لا إلـــه إلا الله[٧٠]

ويبيّن إقبال بعد ذلك أن الحالة قد تغيرت وأن سنة الأقوام قد تبدلت، واستحكم الجبن في قلوب الكثيرين من المسلمين، وأصبحت وجوههم تصفر اصفرار الشمس عند الأصيل إذا ذكر الموت أو الحرب، فيقول:

لم يبق في يد مسلم درع ولا سيف يصول به ليوم جهـــاد
ولو أنه وجد السيوف فهل له ذوق الخلود وحب الاستشهاد[٧١]

ويرى إقبال أنه إذا كان المرء مخلصا لله حق الإخلاص، وإذا كان واثقا بأن الموت ليس إلا العقبة الأولى التي يجتازها الإنسان إلى الحياة الأبدية والمتعة بلقاء الله، إذا كان الإيمان هكذا فلا محل للخوف من الموت، أما أولئك الخائفون فهم شاكون في لقاء الله وفي الخلود، ثم هم يعبدون المال، ويؤثرون الحياة الدنيا، ويظنون أن هذه الحياة المادية هي المرحلة الأخيرة للسعادة، لذلك يخشون أن يموتوا فيحرموا مما هم فيه من نعيم زائل، ويحكم إقبال على هؤلاء بأنهم فقراء، وأن أموالهم لا تساوي التراب، وهم على كل حال سيموتون طوعًا أو كرهًا، فيقول:

المـؤمن الحق كان الله غايته والله كان لديه السمع والبصرا
والآن أضحى إله المال كعبته وخوفه الموت أفناه وما شعرا
سيان في الشرك هذا عابد ذهبا يسعى إلى جمعه أو عابد حجرا
يا مؤمنا بلقاء الله مالك في ذعر من الموت قد أشبهت من كفرا
قد عاد قلبك ميتا بين أضلعه كأنه في حنايا الصدر قد قبرا
من كان يحسب أن الموت هاوية وأنه عدم يستأصل البشرا
فنار آماله ينحط عنصرها إلى التراب ويلقى الموت محتقرا[٧٢]

٧٠- المرجع السابق ص ٥١ من قصيدة أردية.

٧١- المرجع السابق.

٧٢- **إقبال كا فلسفہ حیات وموت**، ص ٧٧ من قصيدة أردية.

ولما كان سم الموت ساريا في كل الدماء البشرية فقد حاول إقبال أن يوجد من السم نفسه علاجا، وكيف استطاع أن يصل بمهارة إلى استخلاص هذا الدواء الغريب؟ إنه عمد إلى تذكيرنا بأن الموت أمر محتوم، وأن لكل إنسان أجلا محدودا، وإذا كانت هذه النهاية قضاء نافذا في الخلائق فالخوف منها لا يجدي فتيلا، ومحاولة الفرار مع كونها جبنا وانحطاطا مخالفة لصواب التفكير أيضًا. فالعاقل لا يفكر في النجاة من القضاء المبرم كما لا يفكر في أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض، وهو في هذه الحالة إلى الجنون أقرب، وبالمجانين أشبه. ولهذا عرض لنا إقبال عدة صور تمثل فناء هذا الكون، وهي صور من حوادث الطبيعة تحمل إلينا فنا بديعا في منظرها الرهيب المخيف، وتذكرنا عند مطالعتها بعوالم السماوات والأرض جميعا في طريقها إلى الانتقال أو الزوال، تعالج فينا خوف الموت وتنبهنا من غفلتنا وترفع عن أعيننا أغشية الغرور والركون إلى زهرة الدنيا وفتنتها، فيقول:

تحت نور الأفلاك عيش جميل وأرى النور ينطفي ويحول
وعلى كاهل المساء ترى للشمس نعشا بكى عليه الأصيل
في سنا البدر للكواكب أكفان توارى بها الشعاع النحيل
بينما هذه الجبال حصون وإذا صخرها كثيب مهيل
وتقيم الأمواج في البحر أبراجا من أوجها الرفيع تزول
ورياح الخريف يكمن للزهر هشيما وقد طواه الذبول
ليس زاد المسافرين سوى الخوف من الموت، والحياة رحيل(٧٣)

وقد حاول إقبال أن يبدد من النفوس استسلامها إلى الدنيا وإخلادها إلى نعيمها الزائل ودعانا إلى الحذر منها والاحتياط فيها، فقدم هذا التشبيه الرائع في هذه الأبيات، فيقول:

مثل الحياة كطائر مترنم غنى فأرقص حوله الأزهارا
ما كان أعذب لحنه لكنه كالحلم حلق في الفضاء وطارا

*****

لا يعلم الإنسان كيف أتى إلى دنيا المتاعب أو متى ما يرحل
ما نحن في الأكوان إلا دوحة أوراقها عما قليل تذبل

*****

٧٣- المرجع السابق، ص ١٠٣ من قصيدة أردية.

إن الحياة شرارة لم تبتسم إلا لتجعلنا لها أحطابـــا
في عرس دنيانا مآتم للردى تطوي شيوخا في البلى وشبابـــا

*****

والمرء لم يبرح أسيرا حائرا ما بين سر الأمس أو لغز الغد
إن الحياة على الأنام بخيلة بدوامها، والعيش غير مخلد(٧٤)

إن الله تعالى هو المنفرد بالبقاء وجميع العالم لا بد أن يفنى، وأن تفسير حلم الموت قد جرى في حياة الملوك والعظماء وعامة الناس، أما خلود الناس فهو من تقدير الله في الأزل، إلا أن هذا الهيكل الترابي الناقص لا بد أن يمر عليه الموت، ولا بد أن يمر الإنسان من هذا العالم المليء بالحوادث التي لم تترك صحراء ولا مدينة، ولم ينج منه بر ولا بحر، ويعبر إقبال عن ذلك فيقول:

الرعد والبروق والزلازل والقحط والآلام والنوازل
في الكوخ والقصر والصحراء والمدن المنيعة الشماء
وفي رياض البلبل الرنان وفي تلال البوم والغربان
يقتحم الموت بجيش القدر حصون فغفور وبطش القيصر
إذا رأيت الموج في البحر سكن فالموت كامن لإغراق السفن
لا نغم العود ولا شكوى الحزين ولا ابتسام البشر أو دمع الأنين
ولا امتشاق السيف بين الدارعين ولا صدى التكبير بين الهاتفين
يعيد نبض القلب في الصدر الخراب أو يرجع النفس إذا حان الذهاب(٧٥)

ويوضح إقبال أن الآلام لا بد منها لتمخيض الإنسانية وعلى نيرانها تنضج الأرواح القوية، ولا يمكن الوصول إلى الأفراح إلا بعد الأحزان، والآلام هي الطريق إلى النور والدرجات العالية في معراج العظمة، والذي لم يعرف أنين المساء، والعاشق الذي حرم في هواه حسرة جواه، وقاطف الزهر الذي حافظ على يده سليمة من الشوك، والذي قضى طول عمره في البهجة والترف، لم يكدح في تحصيل علم، ولم يكد في اقتناء فن وإحياء عبقرية، فأولئك جميعا محرومون من الإحاطة بأسرار الحياة، فيقول:

٧٤- **إقبال كا فلسفہ حیات وموت**، ص ٧٥ من قصيدة أردية.

٧٥- المرجع السابق، ص ٧٧.

إن كانت الحياة خمرا صافيا يغمرنا من رأسنا إلى القدم
ففي الدموع للحياة جدول تصفو به النفس وتنبت الهمم
والله في حكمته علمنا أن انشراح الصدر قبله ألم"(٧٦)

*****

نشيد هذا الكون يبدو ناقصا حتى يتم الدمع ألحان النشيد
ما أيقظ الشباب من سكن الهوى إلا الأسى ينبّه العقل الشريد

*****

آلامنا إلى العلا أجنحة نعلو بها فوق مطارات النسور
الروح سر والحياة ظلمة وشعلة الآلام للأرواح نور
في خفقان القلب لحن صامت لم تحكه على غصونها الطيور

*****

إن الذي لم يدر أنات المساء ولم تسامر عينه نجم السماء
ولم يحطم جام قلبه، الأسى ولم ينر ظلام ليله البكاء
والعاشق المحروم في غرامه من لوعة الذكرى وحسرة الجفاء
ومجتني الزهر الذي لم تختضب يداه في الشوك بحمرة الدماء
والسادر اللاعب طول عمره لم يستمع إلا إلى عذب الغناء
جميع هؤلاء مهما سعدوا من نعم الدنيا بأمن ورخاء
فإن أسرار الحياة تختفي عنهم، وهم عنها دواما في اختفاء(٧٧)

ويحدثنا إقبال عن الظواهر الكونية بلغة ساحرة مبينا أن الربيع لا تتفتح أزهاره ولا تنضر أغصانه، ولا يبدو كل ذلك جميلا في الحدائق إلا عندما تتساقط كل الأوراق بعواصف الخريف، وتبدو الطبيعة جافة صامتة حتى يوقظها ذل الربيع بتغريد أطياره، فظواهر الحياة تعطينا درسا بليغًا، فليس الموت إلا غروبا لشمس الروح، لم تشرق بعد ذلك في صبح الخلود الذي لا فناء بعده، فيقول:

٧٦- إشارة إلى الآية: "ألم نشرح لك صدرك".

٧٧- المرجع السابق، ص ٩٧.

يزعم الجاهلون أن المنايا مغرب فيه للحياة القضاء
أفلم ينظروا إلى الشمس يبدو نورها بعد ما طواها المساء
تغرب النفس ثم يشرق صبح فيه للنفس بالخلود انقضاء(٧٨)

ويصور إقبال من الطبيعة أجمل الصور وأحدث التشبيهات ليزيل اليأس المظلم بنور الأمل المشرق، وأن الحياة ماثلة في تغيرها من جميل إلى أجمل، ومن حسن إلى أحسن، ويخاطب الإنسان المسافر في رحلة الدنيا بأن موت البراعم حياة للزهور، فيقول:

وتوديع أيام البراعم مؤذن بخلق الزهور الباسمات جمالا
ومصنع هذا الكون بالخلق دائر فإني أرى فيه السكون محالا
وليس سوى التغيير في الكون ثابت يغير حالا ثم ينشئ حالا(٧٩)

وقد سبق أن تحدث إقبال في صور مختلفة عن خلود الحياة الإنسانية، والآن لنتأمل النهر الذي ينحدر من القمم المرتفعة في ملاءته البيضاء، هابطا كسلاسل الفضة، مرسلا من خريره نغما شجيا، يتعلم منه البلبل ترجيع ألحانه، حتى إذا هبط النهر إلى السفوح والوديان تفرقت قطراته، وكأننا لا نرى من ذلك الماء السلسال شيئًا إذا سرنا قليلا بعد ذلك بين الرمال رأينا النهر متجليا في حلاه الفضية يسقي من حوله الغابات والأعشاب، كذلك نهر الحياة يهبط من سمائها ثم يغيب حينا ليظهر منسقا في مجرى الخلود، وشاعرنا يقدم لنا هذه الصورة الجميلة فيقول:

من رؤوس الجبال ينحدر النهر طروب الأمواج عذب الأغاني
ينقل الطير عنه بين الروابي ما يبث الغصون من ألحان
كخدود الحور الحسان تراه في صفاء البلور حلو الخرير
ثم تمضي تلك المياه ضياعا في تلال منشورة وصخور
قطرات من النمير طوتها في ثنايا الرمال أيدي الفراق

*****

فإذا النهر بعد ذلك في مجراه يحيى الزهور والأعشابا
فضة تنبت الزمرد في الأرض وتسقي النخيل والأعنابا

٧٨- إقبال كا فلسفه حيات وموت، ص ٩٩ من قصيدة فارسية.

٧٩- المرجع السابق، ص ١٠٩.

وحياة الإنسان نهر سماوي توالت بسيره الأقدار
كلما غاص ماؤه عاد فياضا فما ينقضي له تيار
شعلة النفس لا تصير رمادا ضوؤها خالد على الأزمان
كل شيء يمضي وكل حياة تنقضي غير جوهر الإنسان(٨٠)

إن المنظر الذي يروع الإنسان هو حركة الموت التي تسكن بعدها الأعضاء وتبرد الحواس، فحينما يراك إقبال مرتعدا مذعورا لهذا المشهد الرهيب يضع على قلبك برد العزاء، ويبين لك أن ملك الموت لا يميت الأرواح، "وإن أفنى علم الأشباح" فيقول:

لا تمت من مخافة الموت جهلا فبغير الأنفاس روحك تحيا
يعصف الموت بالجسوم ولكن ليس يفني من قوة النفس شيّا
يصعد الروح للخلود ويبقى عالم الغيب والشهادة حيا(٨١)

ويقول إقبال إن المسلم باق ليرفع العلم ويقود البشرية نحو الخير، وأعداء الإسلام يحاولون أن يسقط هذا العَلَم وأن يذهب المسلمون، ولكن هؤلاء الأعداء أنفسهم كثيرا ما يشاهدون نور الإسلام فيصبحون في طليعة أنصاره وحماته فينقلب عدوانهم حماية ورعاية، وإذا سقطت بعض مواطن المسلمين فالمسلم سيبقى، والإسلام لن يفنى.

والليالي علّمتنا عبـرا في الذي مـرّ به غـزو التّتار
كفروا ثم اجتلوا نور الهدى فاهتدوا لما رأوا ذاك المنار

*****

عرفوا الإسلام فانقادوا له وغدا أعداؤه ركن حماه
عزت الكعبة وانهار الصنم وهوى الشرك بتوحيد الإله

*****

إن هذا العصر ليل فأنر أيها المسلم ليل الحائرين
وسفين الحق في لج الهوى لا يرى غيرك ربان السفين

*****

٨٠- إقبال كا فلسفہ حیات وموت، ص ١١١ من قصيدة أردية.

٨١- المرجع السابق، ص ١٢٧ من قصيدة فارسية.

أنت كنز الدر والياقوت في موجة الدنيا وإن لم يعرفوك
محفل الأجيال محتاج إلى صوتك العالي وإن لم يسمعوك

*****

ليس في الوقت فراغ فاعتزم واملأ الدنيا بأعمال شريفة
أنت نور الأرض تهدي أهلها لن يرى غيرك في الأرض خليفة(٨٢)

ويعتقد إقبال أن المسلم ما زال ممتحنا بالشدائد والحوادث الجسام، ولقد انهالت على المسلمين مصائب الزمن، ورأوا من البلايا ما ضاع بمثله ملك جميع الأمم السابقة من إغريق ويونان وروما وفراعنة، ولكن الحوادث ارتدت عن المسلم كما ترتد الحصباء عن القلعة الشماء، وكل مصيبة تنزل بالمسلم تصير عاملا على إسعاده وسببا في رقيه، فيقول:

نحن نهدي الخلق زهرا وثمارا وسوانا يبعث النار ضراما
كل نمرود إذا أوقد نارا عادت النيران بردا وسلاما
نحن بالإيمان نبني عزّنا لا نبالي الهول أو نخشى الصعابا
وإذا الباغي رمى في غرسنا جذوة الظلم جعلناها ترابا

*****

ذهب اليونان والرومان والفرس قدما وفراعين الزمان
وهدى الإسلام ما زال على قصة الدنيا يدوّي بالأذان(٨٣)

ويؤكد إقبال على أن الذي يحافظ على كمال ذاتيته يحيا بعوامل الموت، فهذه الكواكب والأقمار تزول، ولكن نشوة الذاتية لا يخبو لمعانها إلى الأبد، والذي تمكن من كمال ذاتيته ونضج إيمانه لا يخاف من الموت القادم، وإن ارتكاب أقبح الذنوب أساسه الخوف، لا سيما خوف الموت، والواثق بنفسه يهجم على الأسد وكأنه يهجم على حمل، والخائف يفر من الغزال كأنه يفر من أسد، ولو لم تكن في قلوبنا شائبة الوحل لعبرنا البحر كأنه صحراء، وأما الفزع فيرينا في كل موجة تمساحا، فيقول:

يعلو على الموت من تسمو إرادته وفي عزيمته صدق وإيمان
عمر الكواكب محدود وأنت إلى غير انتهاء بكأس الخلد ريان

*****

٨٢- **إقبال كا فلسفہ حیات وموت**، ص ١١٧ من قصيدة فارسية.

٨٣- المرجع السابق، ص ١٣١ من قصيدة أردية.

يرى الجبان غزال القاع مرتعدا كأنه أسد في القاع ضرغام
والحر يلقى أسود الغيل مبتسما حتى كأن أسود الغيل أغنام

*****

إن الشجاع يخوض البحر مقتحما كأنما الموج أزهار وأدواح
وموجة النهر في عين الجبان بها غول وحوت وتنين وتمساح[٨٤]

ثم يتحدث إقبال عن المؤمنين وصفاتهم ومواقفهم في الحياة وكيف ينبغي أن يكونوا أقوياء معززين مكرمين، لا ضعفاء مهزومين، فيقول:

المؤمنون على عناية ربهم يتوكلون
لا خوف يفزعهم ولا هم في الحوادث يحزنون

*****

لو مر أضعفهم على فرعون يجتز الرؤوسا
لأراك في الإفصاح هارونا وفي الإيمان موسى

*****

إني رأيت الخوف في الدنيا عدوا للعمل
هو مطفئ نور الرجاء وسالب كنز الأمل

*****

يرمي الإرادة بالتزلزل والعزيمة بالخور
ومن احتواه الخوف لا يجني من الروض الثمر

*****

المؤمنون لهم من المولى أمان الأولياء
بلغوا الكمال عن الدنيا العريضة أغنياء[٨٥]

ويرى إقبال أن فقد الرؤوس في النضال مع الشرف لا يقل قيمة عن البقاء الدائم، فلحظة من عمر الأسد خير من حياة الشاة مائة عام، وإلى ذلك المعنى يشير في هذه الأبيات، فيقول:

٨٤- ترجمة الشيخ الصاوي شعلان المصري والأستاذ عبد البارئ أنجم الباكستاني من الفارسية إلى العربية بمناسبة الاحتفال بذكرى العلامة إقبال من طرف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة، سنة ١٩٧٢م.

٨٥- المرجع السابق.

العمر لا يقاس بالأعوام والعقل لا يقاس بالأجسام
واليوم من عمر أسود الأجم بألف عام من حياة الغنم

*****

عش ساعة في لجج البحار ومت شهيد الموج والتيار
ولا تعش دهرا كعيش الخامل مقيدا بين صخور الساحل[٨٦]

وكان القائد الإسلامي خالد بن الوليد رضي الله عنه يعرض عند موته أكثر من مائة وعشرين إصابة على جسمه، وهو فخور بتلك الجروح، إلا أن فخره هذا كان ينقصه الاستشهاد، ونرى إقبال: يرثيه بعد أن خلد ذكرى عطرة وكأنه يصف نفسه فيقول:

مات ولكن لم يمت فهو مخلد الثناء
له من الذكرى حياة لا يشوبها الفناء

*****

إن شئت فاحي مثله قبل نهاية الأجل
إن الحياة في الجهاد والخلود للعمل[٨٧]

إن الأعمال كثيرة والأوقات قصيرة، لا يهمنا أن نعيش طويلا، ولكن يهمنا أن نعمل عملا جليلا، إن الأحياء الحقيقيين هم الذين جاهدوا، وهم الذين صور إقبال لنا جهدهم، وضرب لنا منهم الأمثال، مشيرا إلى أن حياة الدنيا ميدان العمل والكفاح ليكون لك دور عظيم في الحياة، فيقول:

بنور الجهاد الحي سار محمد بجيش على راياته الفوز إكليل
أرى فرصة الأعمال ومضة بارق يضيء سناها لمحة ويزول
إلى الفوز جاهد ما استطعت ولاتنم ففي القبر نوم بعد ذاك طويل

*****

منازل وادي الصامتين على البلى ستبقى بها حتى النشور مقيما
إذا العزم نادى فارم سهمك صاعدا على قبة الأفلاك وامض عظيما[٨٨]

٨٦- المرجع السابق.
٨٧- المرجع السابق.
٨٨- المرجع السابق.

وأخيرا يخاطب إقبال المسلمين جميعا في الشرق خاصة وفي جميع أنحاء العالم عامة، ويذكرهم بأمجادهم العظيمة، ويدعوهم إلى الاتحاد والكفاح، موضحا ما يجب عليهم عمله ليعود المجد كاملا إليهم كما كان من قبل، فنراه في قصيدة له بعنوان: "والآن ماذا يجب أن نصنع يا أمم الشرق". يقول:

تئن الخلائق في الأرض طـرا وقد سامها الغرب عسفا وجورا
فيـا أمم الشرق فيم التواني لقد آن أن يصبح الشرق حـرا
أكاد أرى ثورة في الشعوب تشـد الحياة إلى المجد قسـرا
مضى الليل وانجاب عهد الظلام وبعد الدجى يعقب الليل فجـرا

*****

وللمؤمـن الحر مـن ربه هدى في الحياة ونور مبين
وفي قلبه حرمة واشتياق وعطف على محنة الآخـرين
إذا العلم فاز به المؤمن رأيت بــه خشيــة المتقين
ويزداد خوفا من الله حتى يرد الأمــان إلى الخائفيـن

*****

هو العلم فيـه لنــا كيميــاء إلى قدرة الله يهدي البصــر
فيـا أسفا ليس للغرب منـه سوى حيرة في دياجـي الفكـر
يسوق الرزايـا ويهدي المنايا إلى الخلق من علمه المبتكــر
وبين الصدور تلين القلـوب وفي صدره قطعة من حجــر

*****

تنبه لهذا الدخيل الــذي تفـر الثعالب من مكــره
ولا تتعـمم بمنسوجــه ولا تغمـض العين عن غدره
وإمّــا مررت على حانـه تعوذ بربك مــن شــره
فمن ذاق خمرتــه لم يعــد إلى داره، بل إلــى قبــره

*****

لقد آن للــروح أن تستفيق وللشرق أن يستبين الدليــلا
ليجعل أنقـاض هذا البنــاء على الظالمين كثيبــا مهيــلا
إذا العقل أذعن للقـلب حكما رأى طاعة الله أهدى سبيـلا

وإن لم يجب داعي القلب أضحى كإبليس شـرا ومكـرا وبيـلا

*****

على قوة الحق تحيـا الشعوب وتجتاز في المجد حد المحال
فلا شعب يقوى بلا وحـدة تضم الصفوف لنيل المعال
إذا الـرأي كان بلا قـوة فليس به غير زيف الخيال
وحين ترى قـوة قد خلت من الرأي فهي طريق الوبـال

*****

فتى الشرق أنت الوفي الأمين فأظهر يد العزم للناس جهرا
لتخرج بيضاء من غير سوء وتبطل من فتنة الغرب سحرا
وكيف ارتبطت بأوهامه وكيف استطعت على القيد صبرا؟
فوحد بلادك صوب العلا بإيمانهـا تلـق عـزا ونصـرا

*****

بنا ليس العشق ثوب الـدلال وفاض على الكون طيبا وحسنا
وفطـرة آدم في كل حـي روتها الخلائق في الدهـر عنّـا
تعلمت الأمم الناهضات من الشرق دينا وعلما وفنـا
رفعنا الحجاب عن الكائنـات فنحن من الشمس والشمس منا[٨٩]

*****

كلمة ختامية

كانت هذه فكرة موجزة عن سيرة الأديب المفكر الفيلسوف الدكتور محمد إقبال شاعر باكستان الأكبر، وأهمية أدبه للأدب الإسلامي، وكانت هذه نماذج شعرية له في فلسفة الحياة والموت، تلك الفلسفة التي رفع بها شأن المسلم الأبي القوي عاليا بين البشر في حياته بالفخر والعزة والكرامة، وعند مماته بالجهاد والشرف والشهادة، فهو جدير بما كلفه الله به من قيادة هذا العالم، نحو الإيمان والعلم والفضيلة، ونحو الخير والكمال والسعادة في ضوء تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فرحم الله شاعرنا إقبال رحمة واسعة.

****

٨٩- المرجع السابق.